المسلمون وقضايا الحوار
منطلقات ومقاصد وأولويات

د.محمد الطاهر الميساوي
الأستاذ في الجامعة الإسلامية
العالمية بماليزيا

تمهيـــد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وخاتم المرسلين وعلى أنبياء الله أجمعين

يبدو أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ - التي لا يعلم إلا الله تعالى مهندسيها وفَاعليها الحقيقيين - كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير في مسار علاقات بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي- الأمريكي، لم تكن قطُّ سالمةً من الاهتزاز، خالية من التوتر، كما لم تكن في غالب أحوالها خالصة من الريبة وانعدام الثقة، بسبب عوامل تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية واستراتيجية، ليس أقلَّها الإرث الثقيل لذهنية عهود الاستعمار والاستمرار المقيت لمحنة فلسطين وأبنائها، امتهانًا لكل القيم، وانتهاكًا لكل الأعراف، وتجاوزًا لكل المواثيق، وتحديًا لكل القوانين - يستوي في ذلك الساند والمسنود(١) .

ومهما كان من أمر هذه العوامل وبقطع النظر عمَّنْ دبر لتلكم الأحداث وعمن أخرجها ونفذها، فإن ما وقع في ذلكم اليوم قد جرى توظيفُه والتذرع به على أنحاء لا يخفى ما وراءها من دوافع غير بريئة ومن مقاصد غير نبيلة،

---

(١) الكتابات والتقارير في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة سواءً في ذلك ما كتبه كتاب مسلمون وما كتبه غيرهم، مما لا مجال هنا لاستعراضه. انظر في ذلك مثلاً:

Stephen Zunes: Tinder Box: US Foreign Policy and the Roots of Terrorism (London: Zed Books, 2003); John J. Mearsheimer & Stephen M. Walt: The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy (Farrar/USA: Straus and Giroux, 2007).

وذلك لتأييد أطروحة صراع الحضارات وزرع فتائل تصادمها، ولتحقيق نبوءة نهاية التاريخ وتأكيد أيلولته إلى نموذجٍ حضاريٍّ ظاهر قاهر، مهما كانت الشعارات البراقة التي رُفعت والعناوينَ الخلابة التي رُوِّجت لتغطية الحقيقة الماثلة التي لا مجال لأن يخطئها البصر فضلاً عن البصيرة.

وإنما يُرادُ لشعوب العالم من وراء ذلك كله أن تتماهى مع نمط محدد في الفكر والحياة وأن تسَّاقط خصوصياتُ ثقافاتها وتنماع نظمُ قيمها وتتحلل أساليب حياتها وتذوب هوياتها في بوتقة خاصة للعولمة، اتباعًا لما تحدده قواها النافذة من وجهة وما ترسمه من مسالك لا ينبغي لأحد أن يتلكأ في متابعة السير عليها بله أن يفكر في الحياد عنها؛ فليس لسائر شعوب الأرض طبقًا لفلسفة ذلك النموذج الموجِّهة وعقيدته المحركة إلا أن ترى ما يراه سادةُ العالم وإلا أن تنهج ما يرتضيه لها مهندسو نظامه الجديد من سبل، على منوال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ (غافر: ٢٩).

وليس لأحد كائنًا مَنْ كان أن يُنكر فظاعةَ مشهد الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم ولا أن يقلل من وخامة عواقبها سواء في أبعادها الإنسانية النفسية أو في مظاهرها المادية الحسية، مهما كانت المعايير التي يستند إليها والمرجعية التي يصدر عنها. ولا يمكن أن يجرؤ على ذلك إلا شخصٌ قد انطمست فطرتُه الإنسانية، وماتت حاسته الخلقية، واختلت مداركه العقلية. إلا أن تلك الفظاعة والوخامة ليستا بشيء بالنظر إلى ما جرت به السنواتُ القلائل الماضيات من وقائع كارثيات، وما آلت إليه أحوالُ العالم من أوضاع انفجارية لا تكاد تذر جانبًا من حياة الناس إلا هزته آثارها، ولا بلدًا من بلدان العالم

إلا أصابته شظاياها. ولقد كان الإسلام والمسلمون في قلب الصورة من كل ذلك، تُكال لهم التهم وتُلقى عليهم التبعات وتُسلَّط عليهم الضغوط وتُوجَّه إليهم التهديدات، وتُشوَّه عقائدهم وتزيَّفُ قيمُهم وتُمْتهنُ مقدساتُهم ويُستهان برموزهم، فكتابُهم عنوانُ شرٍّ وفكرُهم سببُ تخلف وثقافتُهم منبع كراهية وإنسانهم عامل دمار وأداة خراب!

والنتيجة في الواقع - لا النظر - هي ما تضج به الأرض وما يصرخ به الضحايا، فتعكسه الشاشات والمرايا صوراً حية يشاهدها مئات بل آلاف الملايين من البشر في كل ركن من أركان كوكبنا الأرضي الذي زُويت أطرافه وتقاربت مسافاته وتشابك ساكنوه، قريةً صغيرة لا مجال فيها لأن يند شأن من شؤونها عن أحد! ولسنا مع ذلك نريد - ولا ينبغي لنا - أن نبرئ المسلمين من مسؤولية مباشرة أو غير مباشرة على غير قليل مما يتعرضون له، وإنما يتطلب الأمر جرأة في كشف الحساب لا مجرد الملامة والعتاب.

لقد شهد العقدان المنصرمان على وجه الخصوص جهوداً كثيفة ومساعيَ حثيثة في مجالات الفكر والثقافة والإعلام والسياسة والاقتصاد والاجتماع، نهضت بها مؤسساتٌ عالمية ومنظمات إقليمية رسمية وشبه رسمية، لا يخفى على المتابع البصير والملاحظ الحصيف ما تهدف إليه من تهيئة للمناخ وتمهيد للسبل لأَطْر شعوب العالم ودوله وأفراده وثقافاته في تلكً البوتقة أطراً وقسرها قسراً للقبول بذلك النموذج والاستسلام لمقتضياته على أن الأمر فيهما ضربةُ لازب لا خلاصَ منها وقدرٌ حتم لا محيصَ عنه.

وقد تتنوع في سبيل ذلك الوسائل وتتعدد المقاربات وتتباين المناهج، ولكن

القصد ثابت والغاية واحدة، وإنما هي مسالك متراكبة، متوازية أو متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض، في إطار خطة أو استرتيجية أمٍّ متكاملة، لن نجانب الحقيقة إن قلنا إن الإسلام والعالم الإسلامي يحتلان مركز الدائرة والاهتمام فيها.

إن هذه الصورة لمجريات علاقات المسلمين بغيرهم - وخاصة دول الغرب وامتدادات نفوذها في العالم - ليست بحال من نسج الخيال، وإنما هي مما يحكيه الواقع الماثل للعيان. إنها صورة قد تثير في النفس الشكَّ في جدوى ما يتنادى به الكثيرون - مسلمين وغير مسلمين - من دعوات للحوار، بل قد تورث اليأسَ من أية نتائج إيجابية يمكن أن يؤدي إليها أو أية قيمة فعلية يمكن أن يسفر عنها. ولن يعدم المتشائمون شواهدَ من وقائع قريبة وتجارب حديثة انخرط بها المسلمون في مستويات متنوعة من الحوار في قضايا الدين والثقافة والاقتصاد والسياسة وغيرها، ولم ينتهوا منها إلى طائل، إلا مزيد تراجعٍ في مكانتهم وتنازلٍ عن حقوقهم.

بل لقائل أن يقول: أنَّى لحوارٍ حقيقيٍّ أن يُدار ويؤتيَ من الثمار ما من شأنه أن يعمق التفاهم ويوطد الاحترام ويعزز سبلَ التعاون بين أطرافه ما دام يكتنفه عدمُ التكافؤ بين المتحاورين: من ضعفاء تابعين مغلوبين، وأقوياء متبوعين قاهرين؟ أفلا تكون الدعوةُ للحوار عندها مجردَ ملهاة يلوذ بها من لا حيلة له ويأوي إليها من لا خيار غيرها أمامه!؟[1]

إن ذلك - وغيره كثير - مما يمكن أن يُعترض به على أية دعوة للحوار، حُججًا قد لا تكون أقلَّ إقناعًا مما يستند إليه مؤيدوه والدعاة إليه. ولكن هل

(١) انظر في ذلك مثلاً: ناصر الدين الأسد: نحن والآخر: صراع وحوار (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧).

تلك هي نهاية المطاف؟ وهل ما وقع هو فعلاً قدر لا يرتفع؟ كلا ثم كلا! فلا عَقْدُ الإيمان ولا منطق الإسلام ولا إرشادات القرآن ولا سيرة الرسول ﷺ تسمح للمسلم أن يركن للواقع مهما ثقلت وطأته، أو أن يستسلم لليأس مهما تكاثفت أسبابه وتواردت الدواعي إليه؛ إذ ﴿لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون.

الحوار: أصول ومنطلقات

لقد صُنفت مؤلفاتٌ رصينة كثيرة وكُتبت بحوثٌ علمية عديدة عن الحوار في القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين، كما كتب مثلها عما يزخر به التراث الفكري والتاريخ الحضاري للمسلمين، تأكيداً لقيمة الحوار وأهميته، وتتبعاً لصيغه ومفرداته، ورصداً لمظاهره وتجلياته، وبياناً لموضوعاته ومجالاته، وشرحاً لشروطه وأساليبه وأدواته، وتحديداً لأهدافه وغاياته(١).

ولذلك لن نأتي بجديد في الفكر أو نقرر بدعاً من القول، إن نحن قلنا إن الحوار أصلٌ أصيل في تعاليم الإسلام؛ نطقت به نصوصُ الوحي وجسدته

(١) انظر في ذلك مثلاً: إبراهيم أحمد الوقفي: الحوار لغة القرآن الكريم والسنة (مدينة نصر/ مصر: دار الفكر العربي، ١٤١٤/ ١٩٩٣)؛ محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن (بيروت: دار الملاك، ١٤١٧/ ١٩٩٦)؛ حمد بن إبراهيم العثمان: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤)؛ محمود حمدي زقزوق: الإسلام وقضايا الحوار (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤)؛ حسن الصفار: الحوار والانفتاح على الآخر (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)؛ هربرت بوسيه: أسس الحوار في القرآن الكريم دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة محمد خليفة حسن (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥)؛ رقية طه جابر العلواني: فقه الحوار مع المخالف في ضوء القرآن والسنة (المدينة المنورة: جائزة نايف ابن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة والنبوية والدراسات الإسلامية، ١٤٢٦/ ٢٠٠٥).

سيرة المصطفى، واجتهد المسلمون عبر تاريخهم في العمل بمقتضاه فتفاوتت أجيالهم وأمصارهم في أقدار تمثله والالتزام به. ومع ذلك فإن من الحقائق البديهية ما قد يحتاج الناسُ إلى تأكيده حيناً بعد حين والتذكير به مرة تلو أخرى، وخاصة عندما تلتبس المسالك وتتطاير الشبهات وتتضارب الأقوال، وسواء كان مصدر ذلك التشويش المسلمون أو غيرهم، وذلك لكي لا تهتز البوصلة عن مدارها، أو توضع الأمور في غير نصابها.

بيد أننا - ونحن نفعل ذلك - لن ننهج النهج ذاته الذي سار عليه سائرُ الذين تناولوا موضوع الحوار، فنتتبع مواردَ الألفاظ المعبرة عنه أو نسرد الأمثلة الدالة عليه. فذلك أمر قد كُفينا مؤنته، فجزى الله الذين سبقونا فيه فأحسنوا وما قصروا. ولكن ذلك لا ينبغي أن يثنينا من أن نحاول الإضافة إلى ما قدموا ولو كان شيئًا يسيراً، لا استدراكًا عليهم أو تغليطًا لهم، وإنما تزكية لما فعلوه وبناءً على ما مهدوه، فنقول وبالله التوفيق:

١- إن القرآن الكريم خطابُ الله إلى الناس كافة، يتوجه إليهم من حيث هم بشر، فيذكرهم بوحدة الأصل الذي منه تفرُّعُهم وبوحدة الروح الذي به قوامُهم وبوحدة الفطرة التي عليها خلقتُهم، صنع الله الذي أتقن كل شيء. فهم بذلك أسرة واحدة، تجمعهم آصرة نسب واحد، ويشتركون في طبيعة واحدة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم: ٢٠)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (الأنعام: ٩٨)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا

زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩)، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٦)، كما أن مصيراً واحداً ينتظرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧)، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١).

٢- وما بين وحدة المبدأ ووحدة المصير، اقتضت حكمة الخالق القدير الذي أنبتهم من الأرض نباتاً أن يبثهم فيها ذكوراً وإناثاً متكاملين، ومتناسلين متكاثرين: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ (النساء: ١)، وشعوباً وقبائل متنوعين متعارفين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، ليستووا فيها على قاعدة التسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٩)، فينهضوا بمهمة الخلافة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) ويحملوا أمانة التكليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، إعماراً للأرض: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، وقياماً فيها بالعدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وذلك كله إنما يتم في إطارٍ من تكريم الله سبحانه لهم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠)، اصطفاءً لهم من دون الخلق أجمعين، لا يتفاضلون إلا بالتقوى وصالح الأعمال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف: ٤٦).

٣- وبذلك ينهض منطلقان أو أصلان كليان عظيمان عليهما تتأسس رؤيتنا الإسلامية إلى البشر كافة، وبهما تتحدد وجهتنا في الحوار معهم جميعًا: من آمن منهم بالله تعالى ومن لم يؤمن، من استجاب لدعوة محمد ﷺ وتبع طريق القرآن ومن نكص.

أما الأصل الأول فهو أنهم جميعًا متحدون في مبدأ صدورهم وأصل نشأتهم، متحدون في طبيعة تكوينهم وصبغة فطرتهم، متحدون في الغاية من وجودهم، متحدون في التكريم الإلهي لهم، ومشتركون فيما به أسباب حياتهم وقوام بقائهم، متحدون فيما يؤولون إليه في ختام رحلتهم في هذا العالم.

وأما الأصل الثاني فهو أنهم خلال وجودهم في هذه الدنيا مبتلون بالاختلاف فيما بينهم قبائل وشعوبًا وأممًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، وبالاختلاف في لغاتهم والتباين في أعراقهم طرائق قددًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢)، بل وبالتنازع والتدافع فيما بينهم بدوافع قد تتقارب أو تتباعد ولمقاصد قد تتباين أو تتناقض: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:

٢٥١)، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥)، ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج: ٤٠)، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩).

٤- وفي إطار من جدل الوحدة والاختلاف والتنوع، آيةً للحكمة الإلهية البالغة في خلق الإنسان وبناء الكون وإجراء نواميس الحياة فيه، يأتي التعارف بين البشر: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، إلهاماً لهم من الله تعالى فيحصل "طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة. وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها. فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر؛ فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم يُبث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المتماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم."(١)

وإنما يحصل هذا التعارفُ الذي في ضوئه تتنامى استعداداتُ البشر وعلى

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ج١٢/ ٢٦، ص٢ ,٦٠ وقارن في هذا الصدد زكي الميلاد (محرر): تعارف الحضارات (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦).

أساسه تتكامل أعمالهم وبسببه تقوم حضارتهم تساوقًا مع فطرتهم وبناءً على وحدة انتسابهم إلى أصلهم الواحد، فيستخدمون ما أودع الله فيهم من قوى الإدراك والفهم: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦)، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)، ويوظفون ما آتاهم من وسائل التواصل والبيان والإفهام: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٣-٤)، سعيًا لسد حاجاتهم وتحقيقًا لما فيه صلاحُهم وطلبًا لما به سعادتهم، في الدنيا والآخرة إن كانوا من أهل الإيمان وعباد الرحمن، وفي الأولى دون الأخرى لمن أراد العاجلة الفانية دون الثانية الباقية. ذلك أن الشكر منازل ودرجات، أعلاها أن يقر الإنسان بمربوبيته لخالقه عز وجل وأن يدين له بالعبودية، طاعةً لأمره ووقوفًا عند حدوده، واستعمالاً لما آتاه من نعمة الوجود والحياة وما سخره له من خيرات الكون فيما يرضيه ويستجلب رحمته ويستمطر رضوانه، فيكون بذلك عبداً لله اختياراً كما هو عبد له اضطرارا[1].

وأما أدنى منازل الشكر فأن يسعى بما أوتيه من قوى ووسائل في طلب ما فيه النفع واستدفاع ما فيه الضر، له ولإخوانه في الإنسانية، بل لسائر المخلوقات، وأن لا يفسد في الأرض بعد إصلاحها.

٥- ذلكم هو الإطار الكلي الجامع - في أبعاده الفكرية والروحية

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٦/ ١٩٩٦)، ج١/ ٢، ص٤٦٩ .

والخلقية والمادية - الذي يتنزل فيه كلامُنا على قضايا الحوار، سواء بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان والعقائد والثقافات المختلفة، أو بين بعضهم بعضًا - بما في ذلك ما جرت تسميتُه بحوار الحضارات. وليس غرضُنا هنا متجهًا إلى هذا النوع من الحوار الذي كثر الحديثُ عنه في العشرين سنة الماضية بوصفه ترياقًا لمقولة صراع الحضارات، لا إنكاراً له أو تقليلاً لشأنه، بل لكونه ظاهرة تاريخية كونية تجري عفواً بين مختلف الثقافات والحضارات فيحصلُ التفاعل والتقابس بينها حتى في أشد حالات الحرب والتقاتل بين أبنائها، سُنَّةً ماضية في العمران البشري والاجتماع الإنساني منذ أقدم العصور. وإنما الذي يعنينا تأكيدُه في هذا المقام هو ذلك الحوار المنهجي المنظم الذي يجري وفقًا لرؤية محددة وخطة مضبوطة وغايات واضحة معلومة، بحيث يعلم الفرقاء المختلفون فيمَ ولمَ وكيف يتحاورون.

٦- وقبل أن ننقل الكلام إلى ذلك، لا بدَ - فضلاً عما سبق بيانُه - من تقرير حقيقة أساسية بشأن قيمة الحوار ومكانته في القرآن.

إن الناظر في هذا الكتاب: في عظاته وأحكامه، وفي قصصه وحكاياته، وفي إرشاداته وتقريراته، وفي "مجادلاته" و"استدلالاته"، لا يملك إلا أن يدرك كم أن بنية خطابه بنية حوارية في جوهرها، توجيهًا وتعليمًا للمخاطَبين به أن لا سبيل للتواصل والتفاهم فالتعارف والتعاون بين البشر من غير سبيل التحاور أو "المرادة في الكلام."[1].

بل إن مفهوم الحوار في القرآن الكريم تمتد جذورُه إلى ما قبل الوجود الأرضي للإنسان في ذلك المشهد المهيب حين أخبر الله تعالى الملائكة

(١) هكذا حدد الراغب معنى الحوار والمحاورة والتحاور. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم / بيروت: الدار الشامية، ١٤١٨/ ١٩٩٧)، ٢٦٢.

باستخلاف آدم، وهو ما قصه القرآن الكريم في هذه الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

إنها محاورةٌ بين الخالق وبعض مخلوقاته بخصوص أهم حدث سيشهده الكون بعد خلق السماوات والأرض، إنها محاورةٌ حول نوع المخلوق الذي اختاره الله سبحانه من بين المخلوقات كافة لتعمير الأرض والتصرف فيها، وحول صفاته وأهليته لهذا المقام.

وقد استروح منها بعضُ العلماء - كالفخر الرازي - أن فيها تعليمًا للإنسان معنى الاستشارة وأن لا يستبد برأيه. وعبر عن ذلك المعنى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في لغة فلسفية دقيقة بقوله:

"وعندي أن هاته الاستشارة جُعلت لتكونَ حقيقةً مقارنةً في الوجود لخلق أوَّل البشر حتى تكونَ ناموسًا أُشْرِبَتْه نفوسُ ذريته؛ لأن مقارَنَةَ شيء من الأحوال والمعاني لتكوين شيء ما تُؤْثِرُ تآلُفًا بين ذلك الشيء وبين المقارن. ولعل هذا الاقتران يقوم في المعاني التيَ لا توجد إلا تبعًا لذوات مقام أمرَ التكوين في الذوات. فكما أن أمره إذا أراد شيئًا - أي إنشاء ذات - أن يقول له كن فيكون، كذلك أمره إذا أراد اقترانَ معنًى بذات أو جنس أن يُقدِّرَ حصولَ مبدأ ذلك المعنى عند تكوينِ أصل ذلك الجنس أو عندَ تكوين الذات. ألا ترى أنه تعالى لما أراد أن يكون قبولُ العلم من خصائص الإنسان، علم آدم الأسماء عندما خلقه."(١)

(١) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٤٠٠ .

وعلى النهج ذاته نسير فنقول: لقد اقتضت إرادةُ الله سبحانه وتعالى وحكمتُه أن يكون الحوارُ والتحاورُ معنًى مقارنًا لخلق الإنسان واصطفائه للخلافة في الأرض وتحمل أمانة التكليف، حتى يكَون ذلك المعنى جزءاً من فطرته وخَصيصَةً من خصائصه. فكما أن الإنسان مفطورٌ على التدين والتعلم وتطلب ما فيه جَلبُ صلاحه ودفع ضره، فهو كذلك مفطورٌ على التحاور مع غيره. وبذلك يكون معنى الحوار في المنظور الإسلامي أصلاً مركوزاً في الطبيعة الإنسانية لا مجردَ صفة عارضة اكتسبها البشر خلال تطورهم التاريخي والثقافي.

وتماشياً مع هذا الأصل وغيره من أصول الفطرة التي أودعها الخالقُ الحكيم في تكوين الإنسان، سارت دعوةُ الأنبياء والرسل عليهم السلام في مراحلها المتعاقبة حواراً وجدالاً بالحسنى مع أقوامهم، مما حفل القرآنُ الكريم بتصوير مشاهده ورسم وقائعه في أسلوب أخاذ ينبض بالحياة ويتدفق بالحركة. وإن في الإسلام لاهتماماً شديداً بالفطرة وتعويلاً كبيراً عليها حتى جعلها هي الدين أو الدين هي، فقال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠). وحتى إذا ما عرضت لتلك الفطرة غَاشِيَاتُ الانحراف من الهوى والجهل والطغيان إلخ فانطمست أو كادت، فإن الإسلامَ لا يفقد ثقتَه فيها ولا يرتد عن تعويله على ما هو مركوز فيها من بذور الخير والصلاح الأولى التي أودعها البارئ سبحانه وتعالى فيها. وإن فيما حكاه لنا القرآن الكريم من قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون لدلالةً بالغة على هذا، حيث قال:

(١) وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الشورى:٨)

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٢-٤٧).

إن الذي أمر اللهُ تعالى موسى وهارون بمخاطبته هذا الخطاب هو فرعونُ الذي بلغ به الصلفُ والجبروتُ أن ادعى الألوهية لنفسه والذي حكى القرآن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤). وسواءاً كان ادعاؤه هذا قبل محاورة موسى وهارون إياه أم بعدها، فإن ذلك كان في علم الله المحيط من قبل وبعد، ولكنه سبحانه لم يرد لموسى وهارون - ومن ورائهما كل مؤمن برسالات أنبياء الله وكل داعية إلى ما جاؤوا به من قيم التوحيد والحق والعدل والخير والعبودية له سبحانه - أن يَدَعا اليأسَ يتسرب إلى نفسيهما ويثبط سعيهما، بل على العكس أمرهما بألا يسقطا من حسابهما ذلك الجذرَ الأصيل في التكوين الإنساني لفرعون، وأن يرفقا له في القول: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، مهما رانت على قلبه وعقله الغشاواتُ وتكاثفت على فطرته عواملُ التشويه والتحريف والإفساد. وقد أحسن التعبيرَ عن هذا المعنى المفكرُ الإيراني الراحل المطهري حيث قال: "النظرةُ القرآنية تؤكد أصالةَ الفطرة، وتعتقد أن الكائن الإنساني - مهما بلغ درجةً من المسخ والانحراف، بل وحتى إذا بلغ مرحلة فرعون - يحمل في أعماقه فطرةً إنسانية مغلولة مكبَّلة. ولهذا يمكن لأكثر الأفراد مسخًا أن يتحرك في اتجاه الحق والحقيقة، وإن ضعف هذا الإمكان."[1]

(١) مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ (بيروت: دار المرتضى، ١٤٠٨/ ١٩٨٨)، ص٢٣٧-٢٣٨ .

بل إن القرآن الكريم لم يكتف بمثل ذلك من مشاهد الحوار في مسيرة دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد قص علينا كذلك مشاهد مما جرى في غيب الأزل من حوار بين الله سبحان وتعالى وإبليس الذي عصى الأمر الإلهي بالسجود لآدم احتجاجاً بتميز عنصره. وفي ذلك نقرأ مثلا:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٣٢-٤٢).

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (الإسراء: ٦٠-٦٤).

الحوار: مقاصد وأولويات

ذلك عن شأن الحوار نظراً وتأصيلاً، وقد دار الكلام عليه من أفق مفهوم الفطرة الذي عده بعضُ العلماء الينبوعَ الذي تنفجر منه "جميع أصول الإسلام وقواعده"[١] و"أساسُ النظم التي أُقيمت عليها الحضارةُ الأولى في البشر من توخِّي الصلاح ودرء الفساد وإصابة الحق."[٢] ولى أولى في البشر من توخي وإذ نؤكد أهميةَ الفطرة في تأصيل معاني الحوار، فإننا نصدر في ذلك عن اعتبار رئيسي استقرَّ لدينا من إدراك لما آل إليه حالُ الفكر الفلسفي والاجتماعي والأخلاقي الحديث الذي يكادُ يسيطر على العالم كله في ظل سطوة الحضارة الغربية وهيمنتها. ذلكم الاعتبار هو أن من السمات الغالبة لهذا الفكر منذ بدايات تشكله الأول فيما عرف بعصر التنوير، النزوعُ إلى النفي المنهجي لأن تكون هناك طبيعةٌ إنسانية ثابتة هي مناط ما يناسب البشرَ في حياتهم الفردية والاجتماعية من قيم وأحوال ونظم ومؤسسات. وهو نزوعٌ يستمدُّ أسسه وقواعده ومسوغاته من الرؤية العلمانية المادية للحياة والوجود والإنسان التي تتابع نموُّها وتبلورها عبر أطوار أساسية، أهما طورا الحداثة وما بعد الحداثة.[٣]

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق محمد الطاهر الميساوي (عمّان: دار النفائس، ١٤٢١/ ٢٠٠١)، ص٤٠ .

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨.

(٣) لم يعد هذا أمراً قاصراً إدراكه على فئة خاصة من أهل الفكر والنظر، وإنما أصبح من الحقائق العاملة التي نبه عليها كثير من المفكرين والعلماء الغربيين وغيرهم وكتب بشأنها العديد من البحوث والدراسات العلمية الرصينة. انظر في ذلك مثلاً:

René Dubos: So Human an Animal (New York: Charles Scribner's Sons, 1968); Roger Trigg: Reality at Risk (Sussex & New Jersey: The Harvester Press & Barnes and Noble Books, 1980); Seyyed Hossein Nasr: Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man (Chicago: ABC International Group, 1997); Robert Cummings Neville: Recovery of the Measure: Interpretation and Nature (New York: State University of New York Press, 1989; Denis Alexander: Rebuilding the Matrix: Science and Faith in the 21st Century (Oxford: Lion Publishing, 2001.

أما شأنُ الحوار عملاً وتفصيلاً فندير الكلام عليه في مقامين اثنين: ننظر في المقام الأول في المقاصد والغايات التي يسعى الحوار إلى تحقيقها، بينما ننظر في المقام الثاني في الأولويات التي تتطلبها الأوضاعُ الراهنة التي آلت إليها العلاقاتُ فيما بين الشعوب والثقافات وتقتضيها طبيعةُ المشكلات التي تواجهها الإنسانية كافة على نحو غير مسبوق في تاريخها.

١ - إن مفهوم الحوار أو التحاور أو المحاورة في السياق الذي سارت فيه هاته الورقة منظورٌ إليه في مداه الإنساني الكوني دون تخصيص له بقبيل من الناس دون قبيل، ولا بنوع من القضايا دون سواه، كما أنه لم يجر حصره في فئة معينة من الألفاظ أو المفردات المعبرة عنه (مثل الجدل والمجادلة والمناظرة، إلخ). ولذلك يمكن تعريفُه تعريفًا عامًّا صالحًا للانطباق على ذلك المدى الرحيب، شمولاً لأبعاده ومستوياته، واستيعابًا لأطرافه وموضوعاته، وإحاطة بآلياته وغاياته. ومن ثم نقول، بناءً على ما ذكره الراغب الأصفهاني في تحديد معناه وتزكيةً له بما جاء في كثير من كتب اللغة والتفسير: "الحوار هو المرادَّةُ أو المراجعةُ في الكلام بين المتخاطبين بإقامة الدليل على ما اختُلف فيه، تطلبًا للصواب من أجل الوصول إلى الحقيقة فيه، رأيًا كان أو عملا".(١)

(١) انظر في ذلك مثلاً: إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧/ ١٩٨٧)، ج٢، ص٦٤٠ وج٤، ص١٦٥٣؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠/ ١٩٩٠)، ج٤، ص٢١٨ وج١١، ص١٠٥؛ فخر الدين الرازي: التفسير الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/ ١٩٩٠)، ج١٠/ ٢٠، ص١١١؛ ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج٧/ ١٤، ص٣٢٨ وج١٠/ ٢١، ص٦-٨؛ محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤١١/ ١٩٩١)، ج١٣، ص٣٧٢-٣٧٣؛ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (القاهرة: أخبار اليوم، بدون تاريخ)، ج١٣، ص ,٨٢٨٦

٢- وعلى أساس هذا التحديد العام لمفهوم الحوار نستطيع أن نقرر أن الغايات التي تتحرك إليها العملية التحاورية تتلخص في مقصدين رئيسين اثنين يجسدان جانبيْ النظر والعمل فيها وهما:

١- السعي لمعرفة حقيقة الأمر المختلَف فيه بين المتحاورين والتسلم بشأنها،

٢- العمل على تمثل مقتضيات الحقيقة المدركة والالتزام بها على مستوى السلوك والعمل. فهذان المقصدان هما اللذان يضفيان على عملية التحاور بين المختلفين قيمتَها النظرية ووظيفيتَها العملية وغائيتَها الخلقية، وهي أبعاد بدونها يصبح الحوار ضرباً من العبثية لا يليق أبداً بالإنسان الذي كرمه الله تعالى تكريماً لم ينله حتى الملائكة المقربون المبرؤون.

وهذان المقصدان من العموم والشمول بحيث يندرج في إطارهما كلُّ ما يمس الحياةَ الإنسانية في جوانبها المختلفة، من أجلها شأناً وأعمقها وقعاً وأبعدها مدى إلى أدناها رتبة وأقلها أثراً وأضيقها نطاقاً، مما ليس هنا المجالُ لتفصيل القول فيه. وفي هذا الأفق الرحيب لمقصدية الحوار وغائيته، يمكننا الكلام على القضايا والموضوعات التي يشملها الحوار ويحتاج الأمر فيها إلى الاستبصار بالأولويات التي ينبغي الانطلاق منها والتركيز عليها. كثيراً ما ينصرف الخاطرُ عند الحديث عن الحوار في مثل مقامنا هذا إلى الحوار بين الأديان، وخاصة بين أديان التوحيد الثلاثة، وعلى الأخص الحوار بين أتباع دين الإسلام والمسيحية، أو المسلمين والمسيحيين حتى نكون أكثر دقة. ولهذا بطبيعة الحال أسبابُه التاريخية والجغرافية ودواعيه الثقافية والحضارية، ومسوغاته الدينية من حيث العلاقة النسبية بين هاتين الديانتين. وقد كُتب الكثير في هذا الشأن من لدن المسلمين والمسيحيين، وانطلقت مبادراتٌ عديدة في سبيل دفع عملية الحوار بين

الطرفين، رعتها مؤسساتٌ ومنظمات رسمية وغير رسمية، وقد تحقق لها بعض ما سعت إليه من أهداف وأخفقت في البعض الآخر. ولكنها في كل الأحوال مهدت جانبًا مهمًّا من الطريق، وكشفت عن غير قليل من العقبات، بما من شأنه أن يجعل استئنافَ الحوار أمراً يسيراً غير عسير.

٣- وإن الناظر فيما دار من حوار بين المسلمين والمسيحيين خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية لا يسعه إلا أن يلحظ أن القضايا العقدية والكلامية (theological issues) هي التي استحوذت على اهتمام المتحاورين في غالب الأحيان. ودون أن نقلل من قيمة الحوار في هذا الجانب - الذي ليس التحاور فيه على أي حال أمراً جديداً بل هو ممتد امتداد العلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية[١] - فإن ما تحقق من خلاله قد لا يرقى إلى مستوى ما يرومه كلُّ طرف منه، وخاصة إذا كان القصدُ تحويلَ طرف من عقيدته إلى عقيدة الآخر. وهذا أمر طبيعي، ذلك أن مسائل العقد والإيمان ليست من الأمور التي تقبل مثل ذلك التحويل. وربما كان من الخطأ الذي يباعد بين المتحاورين ويزيد الجفوة بينهم أن يجعلوا ذلك القصد هو الغاية من عملية الحوار وأن يتخذوه معياراً أعلى للحكم عليها بالنجاح أو الإخفاق. وهذا لا يعني أن كثيراً من الحقائق الموضوعية والتاريخية التي تتصل بالإسلام والمسيحية في أصولهما النصية ومفاهيمها التأسيسية وقيمهما الروحية والخلقية ومكانة ذلك جميعًا في حياة كل طرف أصبحت أكثر جلاءً في

(١) انظر مثلاً: عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر (بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٧)؛ محمد أو شامة: بين الإسلام والمسيحية (كتاب أبي عبيدة الخزرجي)، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٨/ ٢٠٠٧).

الأذهان وأنه قد حصل بشأنها مستوى معقول من التفاهم[١]

٤- ومهما يكن من أهمية الحوار بين أهل ديانات التوحيد الثلاث بسبب الخصوصيات التي تجمعها والإشكاليات التي تنطوي عليها العلاقةُ بينها، فإن الحاجة بالنسبة للمسلمين ماسة جداً إلى توسيع دائرة الحوار الديني لتشمل أتباعَ الديانات الأخرى، وخاصة الكبرى منها كالبوذية والهندوسية وغيرهما. ومنشأ الحاجة إلى ذلك هو أن الإسلام لم يعد - وذلك منذ قرون عديدة - ديناً محصوراً في محيط جغرافي محدود يقتصر التماس فيه بينه وبين المسيحية واليهودية، وإنما أصبح الوجود الإسلامي شاملاً لكل قارات الكرة الأرضية وأقطارها، متماساً بل متداخلاً مع وجود غالب الأديان إن لم يكن كلها. ومن شأن ذلك التماس والتواصل أن يثير من المشكلات

(١) انظر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر الأعمال التالية: بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (طرابلس/ ليبيا: ٢-٦ صفر ١٣٩٦/ ١-٥ فبراير ١٩٧٦)؛ محمد الطالبي: الإسلام حرية وحوار، ترجمة حسني زينة (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٩)؛ محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي-المسيحي (بيروت: دار النفائس، ١٤١٨/ ١٩٩٨)؛ وكذلك:

Jutta Sperber: Christians and Muslims: The Dialogue Activities of the World Council of Churches and their Theological Foundation (Berlin/ New York: Walter de Gruyter, 2000); Jerald F. Dirkis: The Cross and the Crescent: An Interfaith Dialogue Between Christianity and Islam (Beltsville, Maryland: Amana Publications, 2001); Hans Kung et al: Christianity and World Religions: Paths to Dialogue (New York: Orbis Books, 2002 [1986]).

وقد ترجم الجزء الخاص بالإسلام والمسيحية من الكتاب الأخير (وكاتباه هما هانس كونج وجوزيف فان إس) وعلق عليه الدكتور السيد محمد الشاهد ونشره بعنوان: التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام: دراسة تحليلية نقدية (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٤١٤/ ١٩٩٤).

والحساسيات للمسلمين ولغيرهم ما يستدعي التحاورَ حوله للوصول فيه إلى كلمة سواء، ضماناً للاحترام المتبادل والتعايش السلمي بين الجميع[١]

٥- على أنه من الواجب أن ننبه في هذا السياق إلى أن أساس المشكلات التي تواجهها الإنسانية ومصدر أكبر المخاطر التي تتهدد الوجود البشري في عصرنا هذا بل تتهدد عالمنا كله بإنسه وحيوانه وشجره وبره وبحره وجوه وسائر ما فيه من الكائنات التي لا نعلم، ليست الأديانُ هي المسؤولة عنها بالدرجة الأولى. ودون التقليل من قيمة نظر من رأى أن "لا سلم بين الأمم دون سلم بين الأديان"، وأن "لا سلم بين الأديان من دون حوار بين الأديان"[٢]، فإننا لا نتوانى أن نؤكد أن الفكر المادي والعقل الوضعي والرؤية العلمانية هي المصدر الحقيقي للمخاطر التي توشك أن تدفع بالإنسانية كلها إلى هاوية اللامعنى وسحيق اللاقيمة وعبثية الوجود. إن الإنسانية الآن تعيش وطأة العصر العلماني في جوانب الحياة كلها، تحللاً في قيم الأخلاق، وانهياراً في نظم المجتمع وخاصة الأسرة، وجفافاً في الفروح، وخواءً في العلاقات الإنسانية، وأداتية في العقل والتفكير، وتدهوراً في

(١) انظر في هذا الصدد:

Osman Bakar & Cheng Gek Nai (editors): Islam and Confucianism: A Civilizational Dialogue (Kuala Lumpur: Centre for Civilizational Dialogue, University of Malaya, 1997).

ومن المناسب أن نشير هنا إلى ما قام به قبل حوالي ثلاثة عقود المفكر الياباني الراحل بصدد الدراسة الفلسفية العميقة المقارنة للفكر الإسلامي والطاوية وذلك في كتابه الفريد عن التصوف. انظر:
Toshihko Izutsu: Sufism and Taoism: A Comparative Study of Key Philosophical Concepts (California: The University of California Press, 1984 [1983]).

(٢) ذلك ما قرره هانز كونج في خاتمة الكتاب المشترك عن المسيحية وأديان العالم:
Hans Kung et al: Christianity and World Religions, p. 443.

أوضاع البيئة واختلالاً في توازنها، إلخ. وتلك حقائق لا مجال لأحد - بما ذلك العقائديون العلمانيون - لأن ينكرها.(١)

٦- إن العقل الوضعي والفكر المادي العلماني اللذين أعلنا - على لسان فيلسوف مثل نيتشه -موت الآلهة ونهاية الآديان لم يلبثا إلا قليلاً حتى بَشَّرا - في سياق فكر ما بعد الحداثة - بنهاية التاريخ وبنهايات أخرى كنهاية الإيديولوجيا ونهاية العقل، مما لا يتسع المجال لمناقشته. وإنه لمن بالغ الدلالة وعميق المغزى أن تجد ذات المفكر الذي كتب مغتبطًا ومهللاً ليبشر بنهاية التاريخ وبلوغ الإنسانية غاية نموها ومنتهى تطورها من خلال النظام الاجتماعي الرأسمالي كما تجسد في الولايات المتحدة الأمريكية،(٢) إن هذا الداعية نفسه عاد بعد سنوات قلائل لينذر من نهاية الإنسان وانهيار علاقاته الإنسانية وسقوط مؤسساته الاجتماعية واضمحلال القيم والمبادئ التي تسمح لذلك كله بالتماسك، وذلك بسبب ما آل إليه وضع البحث العلمي وتطبيقاته في الحياة الإنسانية من هوة سحيقة جردت الإنسان من أية قيمة إلا كونه كتلة من عزم ولحم. ولذلك أطلق صاحبنا صفارة الإنذار منادياً بالعودة إلى حكمة أولئك الفلاسفة الذين تحدثوا عن طبيعة الإنسان وعن ماهية القيم المناسبة له!(٣)

---

(١) انظر في هذه المعاني:

Charles Taylor: A Secular Age (USA/England: The Belknap Press of Harvard University Press, 2007).

(٢) ذلكم هو المفكر الياباني أرومةً الأمريكي مولداً ونشأة في أطروحته المعروفة. انظر:

Francsi Fukuyama: The End of History and the Last Man (New York: The Free Press, 1992).

(٣) راجع:

Francis Fukuyama: Our Posthuman Future: Consequences of the Biotechnology Revolution (London: Profile Books, 2002).

٧- وبناءً على ما سبق بيانه نقول: إن الحوار بين الأديان أو أتباعها ليس مطلوباً فقط لتسوية ما بينها من مشكلات والتواصل إلى إطار معين من التفاهم والتعايش بينها، وإنما هو أكثر ضرورة لإنقاذ الإنسانية من المهاوي التي دفعها العقل الوضعي بماديته وعلمانيته وإلحاده رويداً رويداً، باسم التحرر وباسم العلم تارة أخرى. وإن حوار الأديان ينبغي أن يكون مهاداً لحوار كل عقلاء الإنسانية ممن ما زالت فطرتهم تناضل وتغالب من أجل الحفاظ على إنسانية الإنسان.

٨- وإذا كان المقصد العام لشريعة الإسلام التي ينبغي أن ندير على أساس هديها الحوار حفظ نظام العالم "واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان" صلاحًا يشمل "صلاحَ عقله، وصلاحَ عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"،[١] فإن أمام المسلمين في ذلك تحديات جسيمة عليهم تقع مسؤولية عظيمة ليعطوا الحوار بين الأديان والحضارات والثقافات مداه الروحي ومغزاه الإنساني الكوني.

وإذ نسير في هذا الطريق فإننا في ذلك ننسج على منوال التوجيه القرآني بالانطلاق مما هو مشترك بيننا وبين من نحاورمن أهل الأديان والملل والثقافات مهما كانت درجات التقارب أو التباعد بيننا وبينهم،[٢] ذلك التوجيه الذي نقرؤه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الطاهر الميساوي (عمان: دار النفائس، ١٤٢١/ ٢٠٠١)، ص٢٧٣ .

(٢) راجع في هذا المعنى: أنراوس بشته وعادل تيودور خوري (بالاشتراك مع محمد طالبي وناصرة إقبال والسيد محمد الخامنئي وكريسيان ترول وهاينرخ شنايدر): عالَم واحد للجميع (أعمال المؤتمر المسيحي الإسلامي الدولي الثاني)، (بيروت: المكتبة البولسية، ٢٠٠٠).

خاتمة وتوصية

إن الوقفات الماضية مع معنى الحوار وأهميته وغايته وقضاياه لا تزيدنا في الحقيقة إلا إدراكًا لثقل ما يتطلبه النهوضُ به من جهد فكري وذهني، ومن تجرد خلقي، ونزاهة إنسانية، وشفافية روحية، وصبر على مطالبه، واستعداد لقبول الحقيقة فيه. كما تضعنا أمام مقتضياته العملية وتكاليفه المادية التي لا يمكن أن تفي بها الجهود الفردية والمبادرات العفوية والاحتفالات الموسمية، وإنما يستدعي الأمر خطة استراتيجية محكمة وإطاراً مؤسسيًا ناضجًا مستقلاً يمضي في سبيله على بصيرة.

والله من وراء القصد وهو العاصم من الزلل والهادي إلى أقوم السبل.